ذكرى أبي الأسود

للاستاذ حامد حفني داود

إن ذكرى وفاة أبي الأسود الدؤلي تبعث إلى الذاكرة ذكرى خطيرة هي تدوين «علم النحو» وهو أول ما دون من علوم العربية. ولا أكون مبالغاً إن قلت أول ما دون من العلوم قاطبة في الإسلام.

وهي بهذا القدر ذكرى عزيزة علينا تحرك النفس وتجدد الأمل إلى دراسة «تاريخ علوم اللغة» التي طالما نادينا بتحقيق دراستها، ولاسيما وأن المستشرقين أنفسهم — بعد أن رسموا بعض المناهج في دراسة — «تاريخ الآداب العربية» عجزوا عن تأريخ علوم اللغة، وفي مقدمتها تأريخ علم النحو. ولعل ذلك راجع إلى ما بين تاريخ هذا العلم ونفسية العربي الخالص من صلة قوية فلا يتم تأريخه بدون تحقيقها. أريد أن أقول: إنه لا يستطيع تأريخ هذا العلم الا عربي عارف بأسرار اللغة وقواعدها التشعبة دارس لها دراسة المحص المدقق، ملم بكل ما وصل إلى أيدينا من تراث الأقدمين وذلك ما دفعني إلى إحياء ذكرى ابي الأسود علنا من ذكراه نستلهم درات تاريخ العلوم العربية [1]

* * *

في سنة ٦٩ هـ منذ الف وثلاثمائة سنة توفي أبو الأسود الدؤلي وقد كان علما من أعلام العربية ورجلا من رجالاتها السابقين الذين وضعوا الأسس ودونوا المسائل. وقد كان تلميذاً للامام علي بن أبي طالب، وعنه تلقى كثيرا من المسائل الدينية والعربية قبل أن تصبح علوماً مبوبة على النحو المصطلح عليه عندنا.

وبعد وفاة الإمام علي سنة ٤٠ هـ مكث أبو الأسود في العراق وكان من أوائل المتصدرين لدراسة علوم العربية والبحث في مسائلها. ولكنه اشتهر بوضع «علم النحو» وإليه نسب وضعه.

* * *

وحول أبي الأسود دارت خلافات كثيرة من حيث وضع علم النحو وطريقة وضعه.

فقد شك بعض العلماء في نسبة وضع النحو إليه. فمن قائل إنه أول واضع له، ومن قائل إن واضعه نصر بن عاصم المتوفى سنة ٨٩ هـ، ومن قائل أنه الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٠ هـ. وذهب علماء الشيعة إلى أن الإمام علي هو الواضع لعلم النحو.

وتخبط بعض المحدثين في تعيين الواضع الأول متأثراً بما ذكره ريكندورف Reckendorf في دائرة المعارف الإسلامية حيث نفى ذلك بقوله «وليس حقاً ما يقال إنه واضع أصول النحو العربي» [2] وظن هؤلاء أن واضعه الخليل بن أحمد. وهو قول مردود بالأدلة العقلية والنقلية.

الدليل الفعلي: أن المنهج العلمي ينص على «أن الأدلة العلمية لا توصف بالبطلان مالم تقم الأدلة القطعية على بطلانها.» فتحقيق المسائل العلمية في نظر المنهج العلمي هو البناء لا الهدم. بينما يأخذ أمثال هؤلاء المتخبطين بالقوانين الهدامة التي ابتدعها فرنسيس بيكون Francis Bacon واحتذاها المستشرقون من بعده. فأنت ترى أن شعار هؤلاء بطلان كل شيء ما لم يقم الدليل التجريبي على صحة المبطل [3] بينما شعار المنهج العلمي الذي وضعنا أسسه التصديق بالقضايا العلمية المروية عن القدماء مالم يقم الدليل المادي على بطلانها [4]. وشتان ما بين المذهبين. فالفرق بينهما — كما ترى — كالفرق بين من يبني ومن يهدم.

---

(١) لصاحب هذا المقال مؤلفات مفردة في تاريخ العربية منها:

١ — المنهج العلمي في تاريخ العلوم العربية. تاريخ البديع من القرن الثاني إلى أواخر القرن الرابع عشر.

(١) وقبل سنة ٦٧ هـ وقبل سنة ٦٨ هـ والراجح ما ذكرناه.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٣٠٨ س٦

(٣) وهو قانون خطأ لأن التجربة غير ميسورة في كل وقت؛

(٤) سواء بالنص المعارض أو بعض عدم تقبل العقل النصف لها.

والدليل النقلي : تواتر الرواية القديمة على نسبة الوضع إلى أبي الأسود وليس هناك أحد من القدماء والمتأخرين من أنكرها. وليس بعد قصة أبي الأسود مع علي ، وقصته مع زياد بن أبيه ، وحديث إبنه أبي حرب من دليل نقلي . وقد قال الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ « أبو الأسود معدود في طبقات من الناس ، وهو في كلها مقدم مأثور عنه الفضل في جميعها، كان معدودا في التابعين والفقهاء والشعراء والمحدثين والأشراف والفرسان والأمراء والدهاء والنحويين ... »

ولم يبق هناك من خلاف بين القدماء إلا فيما إذا كان أبو الأسود تلقى هذه الأصول من الإمام علي أم اعتمد فيها على دراسته الخاصة — لدوافع مختلفة سنتحدث عنها في فرصة أخرى — ولعل ذلك لا يعني أن يكون أبو الأسود واضع علم النحو بارشاد الإمام دفع إليه ورقة فيها أصول ذلك العلم ثم قال له : انح هذا النحو فسمي ما وضعه نحواً .

وإلى مثل هذا ذهب الشيخ خالد الأزهري المتوفى سنة ٩٠٥ هـ « وقد تضافرت الروايات على أن أول من وضع علم النحو أبو الأسود وأنه أخذه أولا من علي بن أبي طالب رضي الله عنه »(١)

وقال الشيخ عبد القادر البغدادي المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ « وهو واضع علم النحو بتعليم علي رضي الله عنه »(٢)

فكأن أبا الأسود وضع هذا العلم مستنيرا بالأصول التي دفعها إليه الإمام . ومن هنا نرى أن الخلاف بين آراء الشيعة وآراء غيرهم شكلي محض لا يمس الجوهر . فنسبة النحو إلى علي نسبة الموجه والمرشد، ونسبته إلى أبي الأسود نسبة المدون والواضع .

والخلاف الثاني : ما هي الأصول الأولى التي نسج أبو الأسود على غرارها وما هي المسائل التي عالجها في كتابه الأول، وما طريقة ذلك ؟

ظن كثير من العلماء أن أبا الأسود كان يجيد السريانية ، وكان يخالط السريان والكلدان في أرض العراق، وقد كان للسريان نحو قريب الشبه من نحونا وقواعد تشبه قواعد العربية ، وكلاهما من اللغات السامية . هذه ظنون جالت بأذهان المفكرين ممن حاولوا التفكير في تاريخ علوم اللغة . فقالوا : إن أبا الأسود درس اللغة السريانية واستنبط قواعدها وطبقها على اللغة العربية . ويدعم هذا الرأي عذرهم أن قواعد اللغة السريانية وضعت في القرن الخامس حين وضع يعقوب الرهاوي المتوفى سنة ٦٦٠ م كتابا في قواعد السريانية ، بينما وضعت قواعد اللغة العربية في القرن السابع . وإذا كان أبو الأسود قد توفي سنة ٦٨٩ هـ تقريباً عرفنا أن محاولة تدوين قواعد العربية كانت بعد أكثر من قرنين من المحاولة الأولى التي أجريت على السريانية .

والراجح في نظر المنهج العلمي أن أبا الأسود لم يتأثر بالسريانية ولم ينقل شيئاً من قواعدها إلى العربية ؛ وأن التشابه بين اللغتين مردود إلى ما بين طبيعة العربية وطبيعة السريانية من صلة — وانتمائهما إلى أصل واحد هو اللغة السامية . ويعزز هذا الرأي الذي ذهبت إليه نماء النحو في اللغة العربية وجموده وانكماشه في اللغة السريانية وغيرها من الفصائل السامية الأخرى . كما أنه ليس هناك من دليل مادي يؤيد دعوة المخالفين وهي دعوة ظنية لا يعتد بها المنهج العلمي .

فنحن لا ننكر نسبة وضع النحو إلى أبي الأسود لأنه ليس هناك من دليل مادي يرد هذا النقل ، ونرفض كل الرفض تأثره بالسريانية لأنه ليس هناك دليل مادي يؤيد هذا الظن .

هذه ذكرى أبي الأسود — وقد مضى على وفاته ثلاثة عشر قرنا. وإني لأرجو أن تثير في نفوس المفكرين الحية إلى دراسة علوم اللغة دراسة تاريخية تفصيلية . وإني لأرجو أن أعيد هذه المحاولة في « تاريخ النحو » وقد بدأت مثيلتها بالأمس القريب في « تاريخ البديع » .

حامد مفتي داود الجرجاوي

دبلوم معهد الدراسات العليا

١ — التصريح للشيخ خالد ج ١ ص ٦

٢ — خزانة الأدب للبغدادي ج ١ ص ٢٥٦